المحاضرة الخامسة: قضية الانتحال وتأصيل الشعر

تعتبر قضية الانتحال من القضايا النقدية الكبرى التي شغلت النقاد القدامى والمحديثين، وقد أشار إليها معظمهم، ولكن أول ناقد كتب في مسألة نحل الشعر العربي هو ابن سلام الجمحي في كتابه طبقات فحول الشعراء، وعلى الرغم من أن بعض معاصريه قد فطنوا إلى فكرة الشعر المصنوع الذي ينسب إلى الجاهلين والإسلاميين وليس لهما، ومن هؤلاء خلف الأحمر والمفضل الضبي، إلا أن ابن سلام كان أشد اهتماما بها والتوسع في شرح جوانب النظرية وجميع ملابساتها التاريخية.

أولا:ابن سلام وقضية الانتحال:

لقد تعرض ابن سلام في مقدمة كتابه إلى قضية الوضع أو صحة الشعر وصحة الرواية فأدرك أن الشعر العربي القديم المتداول على ألسنة الرواة، والمدون في كتب الأخبار والأنساب أغلبه موضوع من قبل الرواة على لسان الشعراء، لذلك قرر وضعه في موضع الشك، لأنه لم يؤخذ عن أهل البادية بالمشافهة.

كما أرجع ابن سلام قضية الانتحال إلى عوامل ثلاثة يمكن أن نبينها فيما يلي:

1: العامل السياسي (عامل القبائل)

كان الشاعر في الجاهلية لسان قبيلته يدافع عنها وينتصر لها، وكان الهجاء سلاحا فتاكا كان يتهدد به الشاعر الخصوم، إلا أن الشعر لم يسجل، بل تناقله الرواة بين القبائل.

فلما جاء الإسلام ألف بين القلوب، وأصبح الشاعر يدافع عن دينه الجديد ويواجه الكفار، فأصبح شعراء الأنصار وشعراء قريش يتهاجون ويتفاخرون، وبعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وجاء الخلفاء وكثرت الفتوحات، انصرف الناس إلى الجهاد في سبيل الله، وكان عمر (رضي الله عنه) قد نهى عن رواية الشعر الذي تهاجى به المسلمون والمشركون أيام النبي (صلى الله عليه وسلم)، وبعد مقتل عثمان(رضي الله عنه) ظهرت العصبية من جديد في بني أمية، فأخذ شعراء الأنصار يفخرون بنصرتهم للنبي(صلى الله عليه وسلم) ورد عليهم شعراء قريش.

وكانت القبائل العربية تحرص على أن يكون مجدها في الجاهلية رفيعا، فأخذت تبحث عن أشعارها التي قيلت في الجاهلية، فلم تجد أكثرها، لان العرب لم تكن تسجل أشعارها، لاعتمادها على الرواة، وكان أكثر الرواة قد ماتوا في حروب الردة والفتوحات، فما كان من هذه القبائل، إلا أن تبحث عن أشعارها التي قيلت في الجاهلية فلم تجد أكثرها.

وفي هذا يقول ابن سلام "... فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها، واستقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم وأشعارهم، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسن شعرائهم".

كما يشير ابن سلام إلى أن قريشا كانت أكثر القبائل نحلا لأنها كانت اقلهم شعرا في الجاهلية، وفي ذالك يقول: "وقد نظرت قريش فإذا حضها من الشعر قليل في الجاهلية، فاستكثرت منه في الإسلام".

وهكذا فقد كان العامل السياسي المتمثل في العصبية القبلية له دور في نحل الشعر ما جعل العرب ينحلون شعر الجاهليين.

2/ العامل الديني:

لقد كان للعامل الديني كبير الأثر في نحل الشعر وإضافته للجاهليين، ويذكر ابن سلام أن القصاص وأصحاب السير عندما حاولوا تفسير ما وجدوه مكتوبا في القرآن الكريم من أخبار الأمم البائدة كعاد وثمود، قد أضافوا شعرا إلى تبع وحمير وهذا شعر منحول، وقد وجه ابن سلام أصاب ع الاتهام إلى ابن إسحاق وغيره من أصحاب السير والقصص.

و"لقد تصدى ابن سلام بالنقد لما وضعه محمد بن إسحاق صاحب السيرة، من شعر مفتعل نسبه إلى من لم يقولوا الشعر".

وقد ورد هذا في طبقاته، إذ يقول: "وكان ممن هجن الشعر وأفسده وحمل الناس منه كل غثاء محمد ابن إسحاق... وكان من علماء الناس بالسير فقبل الناس منه الأشعار... ولم يكن ذلك له عذرا، فكتب السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط، وأشعارا لنساء لم يقلن الشعر قط، ثم جاوز ذالك إلى عاد وثمود، أفلا يرجع إلى نفسه فيقول من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداة منذ ألوف من السنين". ولله يقول:(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى{50} وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى)،(النجم50) وقال في عاد: (فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ).(الحاقة8).

هذا ويرد ابن سلام على ابن إسحاق ويسقط ما ورد في سيرته بأربعة أدلة.

أ – الدليل النقلي، وهو ما جاء في القرآن في الآيتين السابقتين، فيا ترى من حمل ذلك الشعر إلى عصر التدوين والله قد اهلك عادا وثمود؟

ب- دليل تاريخي، أن اللغة العربية لم تكن موجودة في عهد عاد وثمود، فكيف يظهر شعر بلغة لم تظهر بعد. فأول من تكلم العربية إسماعيل عليه السلام، وإسماعيل جاء بعد عاد.

ج – ويذكر ابن سلام أن عادا من اليمن وأن لليمن لسانا غير هذا اللسان العربي .

د – يذكر ابن سلام أن القصائد الطوال ظهرت في عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف وذلك يدل على إسقاط شعر عاد وثمود وحمير وتبع.

3 / عامل الرواة

فطن ابن سلام إلى ما أصاب رواية الشعر الجاهلي من كثرة التزيد فيه والانتحال، ولكن قد يسهل على أهل العلم معرفته، أما الشعر الذي وضعه أهل البادية من أولاد الشعراء أو غير أولادهم فهو الذي يقع موضع الشك والإشكال. يقول ابن سلام:" وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ولا ما وضع المولدون، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الأشكال". وعلى هذا شن ابن سلام هجوما على الرواة الذين افسدوا الشعر، فمنهم حماد الرواية وكان زعيم أهل الكوفة في الرواية والحفظ، وخلف الأحمر وكان زعيم أهل البصرة في الرواية والحفظ، وكانا يحسنان رواية الشعر ويحفظانه، ويصلان إلى التقليد بحيث لا يستطيع احد التمييز بين الرواية والنحل.

فحمّاد يحدثنا عنه راوية من خيرة رواه الكوفة هو المفضل الضبي " أنه افسد الشعر إفسادا لا يصلح بعد أبدا، فلما سئل عن سبب ذلك ألحن أم خطأ؟ قال " ليته كان كذلك فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل. ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الأفاق، فتختلط أشعار القدماء، ولا يميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك ؟".

ويحدث ابن سلام كذلك فيقول:" وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية، وكان غير موثوق به، ينحل شعر الرجل غيره ويزيد في الأشعار".

كما يوضح ابن سلام مسألة أخرى، وهي أن أبناء الشعراء كانوا ينحلون أشعار أبائهم، وذكر مثلا على ذلك: "عن أبي عبيدة أنه استنشد داوود بن متمم بن نويرة شعر أبيه فلاحظ أنه لما نفد شعر أبيه جعل يزيد أشعارا لم تعرف له".

هذه هي مجمل الأسباب التي أدت إلى الانتحال في الشعر كما رأى ابن سلام، وقد سجلها في كتابه طبقات فحول الشعراء، إلا أنه يقر بصعوبة التمييز بين الصحيح والمنحول وبخاصة عندما يصدر الشعر من أهل البادية العارفين بالشعر وروايته، إلا أن ابن سلام اعتمد على رأى علماء عصره ومن سبقوه، وعلى منهجه وثقافته في كشف المنحول، وتلك محْمدة تحسب له.

ثانيا: الانتحال عند الجاحظ:

تناول الجاحظ هذه القضية وحاول أن يتمم ما بدأه ابن سلام في التمييز بين الشعر الصحيح والمنحول، فاعتمد في ذلك على شهادة الرواة وعلى مبدأ تفاوت الشعر، فيروي بيتا منسوبا لاوس بن حجر:

فَانْقَضّ كالدُّرِي يَتبَعُه نَقْعٌ يثور تَخالُه طَنَبا

ويقول معلقا عليه:" وهذا الشعر ليس لأوس إلا من لا يفصل بين شعر أوس بن حجر وشريح بن أوس"، ويضيف الجاحظ إلى أدلة ابن سلام دليلا داخليا نابعا من المعنى الذي يؤديه الشعر، وضرب مثلا على ذلك وهو قول الأفوه الأودي:

كَشِهابِ القَذفِ يرميكم به فارس في كفّه للحَرب نار

قال:" وبعد فمن أين علم الأفوه أن الشهب التي يراها إنما هي قذف ورجم وهو جاهلي، ولم يدع هذا أحد قط إلا المسلمون ".

ويتضح من هذا أن الجاحظ حلل البيت داخليا واستنتج أن الشهب وهي رجم الشياطين جاء ذكرها في القرآن، فأين لهذا الجاهلي أن يعرف شيئا كهذا.

كما يروي الجاحظ أن هناك أناسا كانوا يبهرجون أشعارا ويستسقطون من رواها لينسبوها إلى غيرهم، يقول:" وقد رأينا أناسا منهم يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها، ولم أر ذلك قط إلا في رواية الشعر غير بصير بجوهر ما يروي، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان وفي أي زمان ومكان.

لقد واصل الجاحظ ما بدأه ابن سلام، وأضاف إلى أدلة الوضع والانتحال دليلا آخر، وهو الدليل الداخلي الذي يكمن في النص الشعري، ووازن بين البيت وما كان معروفا في الجاهلية، ثم يحكم على الشعر أن كان منقولا أم لا.

ثالثا:الآمدي والانتحال.

ونصل إلى القرن الرابع حيث يطالعنا الآمدي بحديثه عن الانتحال، فهو يتحقق من النصوص ونسبتها حيث يرجع إلى النسخ القديمة ويحقق أبيات الشعر.

ففي حديثه عن شعر أبي تمام يذكر أنه اطلع على النسخ العتيقة التي لم يطلع عليها غيره، يقول: " حتى رجعت إلى النسخة العتيقة التي لم تقع في يد الصولي وأضرابه ".

كما يملك الآمدي روح الناقد الخبير فكان نقده علميا " ينظر في صحة نسبة الشعر، وهو في ذلك تلميذ لابن سلام، ومن ثم نراه لا يقبل ما ينسب إلى الأعراب انتحالا ".

وهكذا، فالآمدي واصل ما بدأه ابن سلام ومن بعده الجاحظ في تحقيق النصوص ونسبها لأصحابها بمنهج فيه روح النقد العلمي.

وخلاصة القول، إن ابن سلام أول ناقد اهتم بقضية الانتحال، ودرسها دراسة جيدة مبنية على أسس نقدية صحيحة،مثبتا وجودها بالأدلة والبراهين، والنقاد الذين جاؤوا من بعده، إنما أكملوا ما بدأه، ومنطلقهم في الدراسة ما وصل إليه ابن سلام.

المصادر و المراجع:

-طبقات فحول الشعراء:ابن سلام الجمحي.
-البيان و التبيين:الجاحظ.
-العمدة:ابن رشيق.
-الموازنة:الآمدي.
-تاريخ النقد الأدبي عند العرب:إحسان عباس.
-منهج النقد الأدبي عند العرب:حميد آدم ثويني.